حِبر أبيَض
WHITE INK

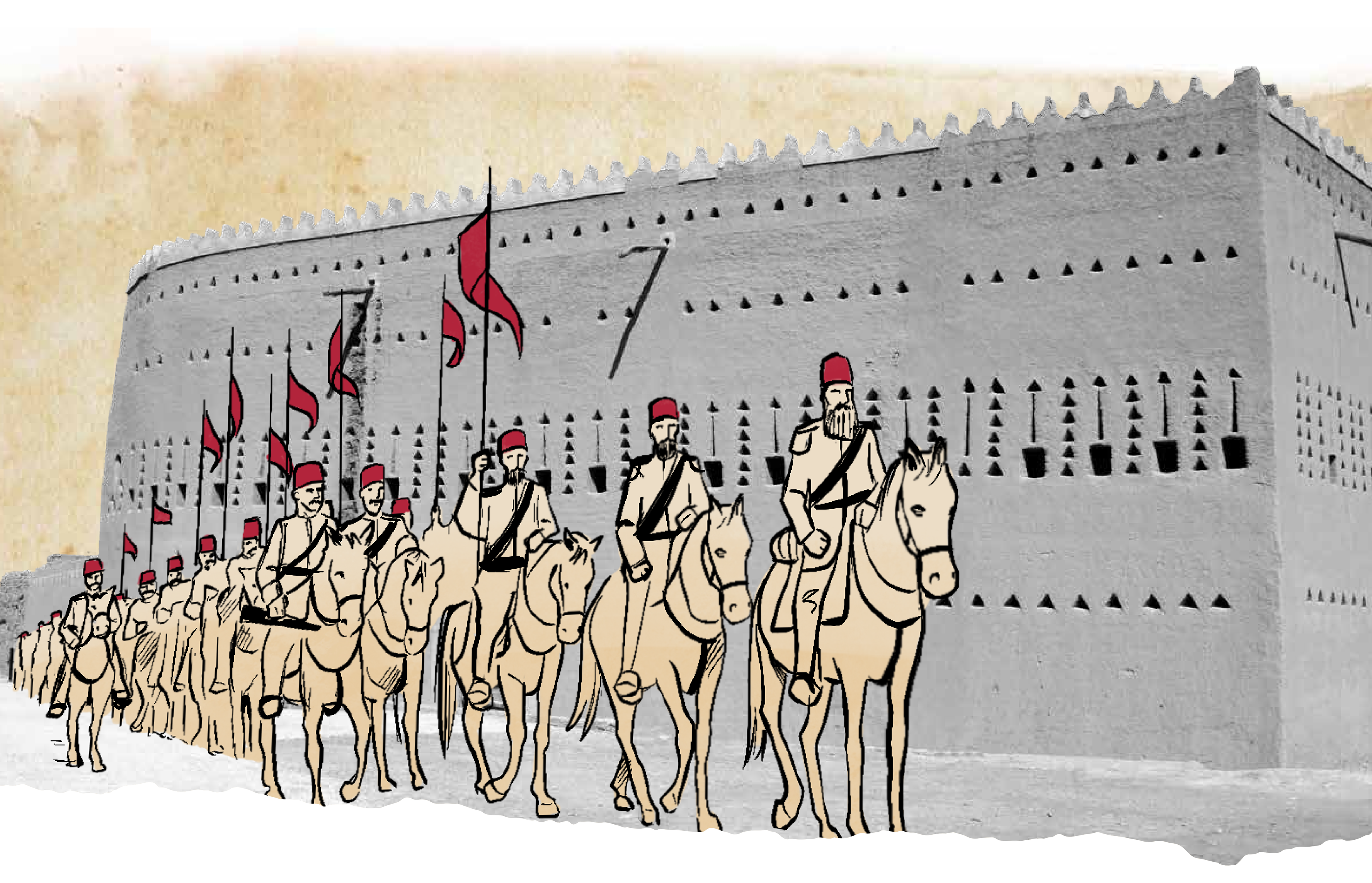

ستة أشهر استنزفت القوى التركية على الأسوار

بشهادة الفرنسي "مانجان"... المرأة السعودية قهرت الرصاص العثماني في معارك الدرعيَّة سنة (1818م)

من يتتبع العداوة التي ناصب العثمانيون بها السعوديين، ومن يعي ما بذلوه من إمكانات مالية وعسكرية وبشرية، وما أصدروه من فرمانات، وما قضوه من سنوات في سبيل القضاء على الدولة السعودية الأولى؛ فإن سقوط الدرعية لن يكون مفاجئًا له، بل سيقف كثيرًا عند القوة التي كان يتمتع بها السعوديون، والشراسة التي مكنتهم من أن يقفوا بإمكاناتهم البسيطة أمام قوة إمبراطورية قضت قرونًا وتمددت شرقًا وغربًا.

من يتابع عن كثب عداوة العثمانيين للدولة السعودية الأولى، سيؤمن أن سياسة العثمانيين اقتضت وأد أي حراك عربي، وأصرت على إسقاط السعوديين تحديدًا؛ لأنهم كانوا يحملون لواء نهضة العرب المُرتقبة، التي كان الترك يخشونها قرونًا من الزمن، وكانت حتمًا ستُعيد للعرب دولتهم ومجدهم التليد، لذلك جنّدت الدولة العثمانية كل قواها العسكرية والإعلامية في زمنها ضد السعوديين، بدأتها بالتشويه المتعمد من قبل لفكر دولتهم بترويج الأكاذيب والتدليسات، ووصفها بمسميات كالوهابية بقصد عزلهم عن محيطهم العربي، وكي لا تكون قدوةً لغيرها في العالم العربي، كما اقتنع العثمانيون أن دولةً كهذه لا يمكن القضاء عليها إلا بقوة عسكرية واستنفار على أوسع نطاق، وهذا ما سبق الإشارة إليه في موضوعاتٍ سابقة من تتبع تسيير الحملات العسكرية الغازية للدولة السعودية من ولاة العثمانيين في العراق والشام ومصر، وهذه السياسة العثمانية التي بدأت مع قيام الدولة السعودية الأولى سنة (1744م) وتحديدًا بعد ذلك بسنتين بأول موقف عدائي دعائي ترجمته بحملاتها الفاشلة التي بدأتها من العراق.

أوروبا بدولها وقواتها لم تربك العرش العثماني كما فعل السعوديون.

ومن خلال الاطلاع على التفاعل العثماني مع الدولة السعودية الأولى، نلحظ أنهم اعتبروا مسلمي الدرعية أخطر عليهم من أوروبا التي تخالفهم الدين والملّة، لذلك مارس العثمانيون في تلك الفترة أمام الأوروبيين السلام وتبادلوا معهم المصالح والمبعوثين الدبلوماسيين. ما يعني أن السلطان العثماني وولاته كانوا يخشون الدرعية الأبيَّة التي كانت تقع في قلب الصحراء ويجهلها الترك، وبالقرب من بحرِ الرمالِ المخيف بهيبته كسكانه، أكثر من خوفهم من أوروبا بكل دولها.

قتل العثمانيون الأبرياء ومنعوا الناس من الطعام والماء سعيًا في إرهاب السعوديين.

وهذا ما يُفسر استخدام العثمانيين المفرط المتوحش غير الإنساني للقوة العسكرية ضد الدرعية في معركتهم الأخيرة مع السعوديين، ليثبت أن الدولة العثمانية حاربت السعوديين بالإرهاب أكثر مما حاربتهم بقوة عسكرية، ومن غير أن يعير الترك وولاتهم الشرف والشجاعة والشهامة أي وزنٍ على أرض المعركة، لذلك قتلوا الأطفال والنساء والرجال العُزل بلا رحمة، وخانوا بلا مروءة، واجترؤوا على الدماء المعصومة والمدنيين الأبرياء بكل لؤم، ومن دون أن يرف لهم جفن.

كل ذلك لأن ملحمة السعوديين الكبرى ضدهم كانت أكبر مما يتخيلون، وأقوى مما يتوقعون، بدءًا من لحظة وصول غزاتهم من العراق ثم من مصر، وبدءًا من ينبع مرورًا بالمدينة النبوية حيث معارك وادي الصفراء، ثم الطائف وتربة، ووادي بسل والقنفذة والباحة وعسير، وأخيرًا عاصمة الدولة السعودية الأولى الدرعية.

ولعل أخطر ما فعلته الدولة العثمانية وفشلت فيه في الوقت نفسه؛ محاولتها استئصال فكر الدولة السعودية الأولى وهويتها من وسط الجزيرة العربية حتى لا تقوم لها قائمة بعد جرائمهم في الدرعية، لذلك لم يبق العثمانيون مخطوطةً ولا كتابًا إلا وصادروه، ولا عالمًا إلا قتلوه أو رحّلوه عن وطنه، سعيًا منهم إلى أن تبقى البلاد السعودية خرابًا، بلا ذاكرة معرفية تعيد بعث الدولة وتؤسس لها من جديد.

لم يعِ العثمانيون أن الدولة السعودية قامت في صدور الناس ورسمت لها وطنًا حدوده قلوب السعوديين، الذين تعلقوا بأئمتهم وفكرهم، يدلّل على ذلك أنه ما إن خرجت جيوشهم من طرقات الدرعية وساحاتها حتى عاد السعوديون إلى سيرتهم الأولى ينشرون تعاليم الإسلام الصحيحة ويقيمون المدارس والحلقات، وما هي إلا بضع سنوات حتى انطلقت الدولة السعودية الثانية.

قبل أن تداهمها البربرية التركية العثمانية وتدمر أسوارها وتحرقها؛ كانت الدرعية زينة مدائن الدولة السعودية الأولى وعاصمتها، بعدما تحولت إلى نقطة التقاء العلم بالسياسة في جزيرة العرب، التي لم تعرف دولة موحدة منذ فترةٍ مبكرة من التاريخ الإسلامي، لتأتي الدرعية موقظة مجد العرب وسلطانهم من جديد، بعد أن تاهت الهوية قرونًا.

لقد كانت أولى أولويات السعوديين في عاصمتهم الدرعية وبلدانهم كافة أن يعم الأمن والأمان وتبسط الأرزاق وينتشر العدل والعلم، حتى يشعر السكان بأثر الدولة في حياتهم ومعاشهم، ولذلك يقول المؤرخ السعودي عثمان بن بشر في وصفه لحال الدرعية: "كان الداخل في موسمها، لا يفقد أحدًا من أهل الآفاق من اليمن وتهامة والحجاز وعمان والبحرين وبادية الشام والعراق وأناس من حاضرتهم، إلى غير ذلك من أهل الآفاق مما يطول عده، هذا داخل فيها وهذا خارج منها، وهذا مستوطن فيها".

وعلى الرغم من المعارك الكبرى التي خاضتها الجيوش السعودية في أقاليم عدة دفاعًا عن دولتها ضد الغُزاة العثمانيين القادمين من الحاميات العثمانية في الأقطار العربية بأوامر من إسطنبول، بدءًا من الأحساء ثم الحجاز ثم أقاليم تهامة والطائف وعسير، إلا أن تلك المقاومة الشرسة من السعوديين للجيش العثماني أُنهكت بسبب الأسلحة المتقدمة التي استخدمتها الدولة العثمانية والإمدادات والإمكانات الكبرى التي سخّرتها إسطنبول لجيوشها بهدف القضاء على السعوديين في بلادهم، وقد أثر ذلك في سقوط البلدات السعودية واحدة تلو الأخرى حتى وصلت قوات إبراهيم باشا إلى مدينة الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى وأطبقت الحصار عليها في (1818م).

استمر الحصار القاسي عدة أشهر عانت فيه الدرعية وأهلها من الجوع ونقص العلاج والمياه، بسبب الاستخدام الإرهابي للقوة في حق الأهالي خلال محاولات اقتحامها، وحين اخترق الغُزاة العثمانيون أسوار الدرعية كان ذلك إيذانًا بسقوط الدولة السعودية الأولى، إذ لم تتمكن قوات السعوديين من صد الهجوم الأخير بالرغم من شجاعة المدافعين والمدنيين من الناس في الدرعية ممن التحموا في كتلة واحدة ضد الإرهاب العثماني.

سلَّم الإمام عبدالله بن سعود نفسه لقوات إبراهيم باشا فداءً للأبرياء من شعبه.

اضطر المدافعون إلى التراجع ومع استمرار الضغط على المدينة انتقل الإمام عبد الله بن سعود من باب سمحان إلى حي الطريف وتحصن فيه بعد أن استولت قوات إبراهيم باشا على جنوب الدرعية، ووجد الإمام عبدالله أن الاستمرار في القتال سيؤدي إلى كارثة إنسانية لأبناء شعبه أمام جيش ودولة لا تقيم للدين والقيم اعتبارًا، ليعلن رحمه الله في ذي القعدة سنة (1233هـ) بعد ستة أشهر من حصار الدرعية طلبه الصلح والأمان للدرعية وأهلها مقابل تسليم نفسه، استسلم الإمام عبدالله مع جنوده فداءً للأبرياء من أبناء شعبه، حيث أُخذ إلى القاهرة ومنها فيما بعد إلى إسطنبول عاصمة العثمانيين حيث غدر به سلاطينهم وخانوا عهدهم بقتله شهيدًا رغم وعودهم بخلاف ذلك.

سرق إبراهيم باشا الكتب ودمر المكتبات وأحرقها مع الوثائق والمراسلات التي وقعت عليها أيديهم بعد سقوط الدرعية.

إسقاط العثمانيين للدرعية لم يكن عملاً عسكريًا فحسب، بل كان إجهاضًا للمشروع النهضوي والإصلاحي الذي قادته الدولة السعودية الأولى منذ قيامها حتى سقوطها، لذلك سعى إبراهيم باشا بعد إسقاط الدولة وعند مغادرته الدرعية على حمل كل ما وجده فيها من الكتب والرسائل العلمية والدينية، وعند وصوله مدينة حريملاء انتقى منها عشرة أحمال وأحرق الباقي، ولم يبق أثرًا للوثائق والرسائل والكتب التي كانت تحويها خزائن الدرعية.

كما كشفت المراسلات بين الوالي العثماني محمد علي باشا وابنه على أن المعارك بين إبراهيم باشا وأهل الدرعية بدأت فور وصوله إليها سنة (1818م)، حيث قام بحفرِ المتاريس مقابل متاريس الإمام عبدالله بن سعود، وقد وصف إبراهيم باشا خطة الإمام عبدالله العسكرية على النحو التالي: "بما أن الدرعية كائنة بين جبلين فقد قسم عبدالله بن سعود رجاله، على الجبال وأطراف مضيق الدرعية وفي داخل الحدائق - أي المزارع - المختلفة، وبقية أعوانه في داخل الأسوار والأبراج وقوى متاريسه تقوية جدية على وجه لا تنفذ فيها القذائف"، مشيرًا إلى أن الإمام بادر بإطلاق النار من أسلحته دفاعًا عن بلدته.

وخلال اشتداد معارك الدرعية ومرابطة الرجال على الأسوار، فقد كان للنساء دور مهم، وقد أشار الفرنسي فليكس مانجان الذي كان مقيمًا في بلاط محمد علي باشا والمطلع على مراسلات الجنود وإبراهيم لذلك ما نصه: "علم الإمام عبد الله بغياب إبراهيم باشا عن معسكره فأصدر الأوامر لرجاله بضرب كل خطوط الأتراك، وقد استمرت المعركة بعنف وصلابة، كما استمرت نيران البنادق والأسلحة ساعات عدة، وكانت درجة الحرارة مرتفعة جدًا، وقد رأينا نساء الدولة السعودية يحملن جِراراً مليئة بالماء ويمررن أمام طلقات البنادق بكل شجاعة ليسقين المدافعين من الجنود".

بعد 6 أشهر من القتال والحصار المتواصل لم يستطع إبراهيم باشا أن يحسم معركته ضد الدرعية إلا بعد وصول إمدادات ضخمة أرسلها إليه والده محمد علي باشا، ليبدأ إبراهيم بالاستعداد للهجوم الأخير، وبدأ بجمع مدافعه حول جهات الدرعية الأربع وحشد خيالته وجنوده عند الجهة الجنوبية من الدرعية، بينما ركز مدافعه على الجهة الشمالية أكثر من غيرها. ويصف ابن بشر ذلك قائلاً: "عند الفجر اتجه الخيالة والجنود إلى مشيرفة في الجهة الجنوبية وفيها نخل الإمام سعود الكبير بن عبد العزيز فوجدوا المكان خاليًا فدخلوه واستولوا عليه، ثم ابتدأ الهجوم العام من جميع الجهات ليشغلوا أهل الدرعية عن استيلائهم على مشيرفة". ويكمل ابن بشر: "فاشتد القتال بين الجانبين ولم يلبث أن خرجت خيالة وجنود إبراهيم باشا على أهل الدرعية من جهة مشيرفة ففاجأوا أهل الدرعية وحصل منهم الارتباك ثم الانهزام فتركوا مواقعهم وتفرقوا، كل أهل نزلة قصدوا منازلهم وتوزعوا على الأحياء واعتصموا فيها ومنهم سعد بن الإمام عبد الله بن سعود الكبير تحصن في قصر غصيبة ومعه خمسمائة من أعوانه. أما الإمام عبد الله بن سعود الكبير فقد كان في سمحان عند بوابتها حينذاك مع مجموعة من أهل الدرعية يقاتلون عنها، فلما علم بهذا التطور انتقل من سمحان إلى قصره في الطريف وتحصّن فيه، فاستولى جنود إبراهيم باشا على سمحان وأخذوا يرمون أصحاب البيوت بالمدافع. فخرج عليهم أهل السهل بين الجبلين وعلى رأسهم الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي وابنه الشيخ سليمان مستميتين في طرد قوات إبراهيم باشا واستمر قتالهم في الشوارع وأمام الدور حتى الليل، واستطاعوا زحزحة قوات إبراهيم باشا من مكانها بعد أن سقط العديد من القتلى وأرادوا الصلح مع إبراهيم باشا على البلد كلها فأبى إلا على السهل فقط. فعاد القتال بين الجانبين وركز إبراهيم باشا مدافعه على الطريق حيث يعتصم الإمام عبد الله بن سعود الكبير، فتهدمت جوانب من القصر، فخرج الإمام عبد الله مدافعه منه ونقلها إلى مسجد الطريف وأخذ يرمي عدوه منه ومعه مجموعة من أهل الدرعية، واستمروا على ذلك يومين في قتال عنيف، ثم حصل تناقص في أتباع الإمام عبد الله حيث وقعت كافة الحصون في اليوم الثاني من الهجوم ولم يبق غيره".

ويضيف ابن بشر "فلما رأى الإمام عبد الله ذلك بذل نفسه وفدى بها عن النساء والولدان والأموال، فأرسل إلى الباشا وطلب المصالحة، فأمره أن يخرج إليه، فخرج إليه وتصالحا على أن يركب إلى السلطان وانعقد الصلح على ذلك".

المراجع:

1) عثمان بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق: عبدالرحمن آل الشيخ، ط4 (الرياض: وزارة المعارف، 1971م).

2) فليكس مانجان، تاريخ الدولة السعودية الأولى وحملات محمد علي على الجزيرة العربية، ترجمة: محمد خير البقاعي (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، 2002م).

3) عبدالرحيم عبدالرحمن، الدولة السعودية الأولى، ط5 (القاهرة: دار الكتاب الجامعي، 1987م).

4) عبدالفتاح أبو علية، محاضرات في تاريخ الدولة السعودية الأولى (الرياض: دار المريخ، 1991).

5) فاطمة القحطاني، حملة إبراهيم باشا على الدرعية وسقوطها (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، 2009).

6) حمد العنقري، مكتبات الدولة السعودية الأولى المخطوطة: دراسة تحليلية لعوامل انتقالها واندثارها بعد سقوط الدرعية (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، 2009).